

نشأت في كنف ظروف مجتمع يتعرض للتغيير ويواجه التحدي من الخارج ، ويحار فيما يأخذ وفيما يدع ، ويلاحظ اختلاف مادة التفكير بين قديم موروث وطارئ وافد عليه . وكانت النتيجة العامة لهذا كله هي التمزق بمعنى من المعاني ، فريق يرى أن البلاغة نظام صالح في بعض صوره الموروثة على الأقل ، وفريق يرى رأياً آخر . وهذا الفريق الثاني كان يعبر عن موقفه في معظم الأحيان تعبيراً حماسياً ، تعبير المهموم الذي يرى ضرورة التغيير أكبر من أن تكون حاجة عقلية محدودة . وليس أدل على ذلك من أن بعض هؤلاء القلقين كان يقول إن الباحثين المتقدمين لم يكونوا يشغلون أنفسهم بشيء نبيل . وعبرة « النبيل » في نفسها تسترعى النظر ، ولم يشفع البحث عن الخصوصيات والدلالة والحسن الذاتي والحسن العرضي للبلاغة . لقد تناولوها جملة ، ورفضوها جملة وإن كانوا في معظم الأحيان يبنهون إلى لغات قيمة هنا وهناك . لنقل بعبارة واضحة إن الخصوصيات والمقتضيات أو- المقام - كانت هذه جميعاً مريبة أو موهمة مضللة . وأكد اعتقد أن مفهوم المقام الذي تدور حوله دراسات البلاغة كان أهم أسباب الارتباب . كان الموقف في دراسات البلاغة لا يستجيب للبحث عن هذا الشيء النبيل . وعبارة أوضح كان مفهوم المقام التقليدي لا يستجيب لطموح قلة تريد أن يغير المجتمع كله احتياجاته ، لنقل بعبارة شبه فكاهية كانت هذه القلة تبحث عن مقام آخر للحياة الإنسانية والمجتمع العربي^(٢) .

ولأمر ربما لا يصعب توضيحه بدت البلاغة مفتونة بكل شيء عدا أهداف الحياة « المعاصرة » التي ينبغي الاهتمام بها ، ونقيم كل شيء في إطارها . هل كانت هذه الأهداف متميزة تماماً ؟ كل ما يمكن الوقوف عنده - في اطمئنان كبير - هو الشعور المبكر النامي مع الأيام والممتد من طبقة إلى طبقة - بأن البلاغة الموروثة وبخاصة في صورتها الأخيرة الدائرة حول تلخيص المفتاح - أقل من أن تنهض بتصور روح الإنسان . ولا معدى من استعمال الألفاظ العامة المجردة ، فقد كان النقاش وجدانياً في مجمله ، ولم يكن يدور في قاعات الدراسة الأكاديمية وحدها ، بل كان يعيش أكثر ما يعيش في الخطاب الذي يوجه إلى دائرة واسعة من القراء .

(٢) كانت النظرة إلى المقام وصفية أحياناً ، فقد اعترف بحق كل إنسان في أن يعامل معاملة تليق به ، وهذا يبدو معقولاً لأول وهلة ، ولكن ظروف النهضة تحتاج إلى نظرة معيارية لا تقبل التهاون ، وإلا فقدت النهضة معنى وجودها . وربما كانت الثورة على فكرة المقام قديمة أيضاً ، وربما تمثلت في وقت مبكر في البحث عن الفهم أو التذوق العالي والاعتراف بالقارئ الكفء ، ولكن علينا أن نلاحظ أنه في الربع الأول من هذا القرن كانت العناية ببلاغة المقام هي الأرجح في الدوائر الرسمية ، ومن ثم نستطيع أن نتصور ما لقيته من معارضة .